بالسلاح والمال . لا يطلب إلا قسطا مما ينفق على موائد الخمر وسهرات الليل ، وما يراق على أقدام الغواني من ثراء !

وما يمكن أن يمضي الشعب في كفاحه ، وأن يريق في كل يوم دماءه وأرواحه ، وهؤلاء السادة سادرون فيما هم فيه !

إن لكل شيئا حدا . ومحال أن تسير الأمور على هذا النحو بلا نهاية . . فهي النصيحة الخالصة إذن نزجيها ، قبل فوات الأوان !

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

سيد قطب

٣٨٠٦

# يا مصـــر ! ..

للأستاذ محمد البشير الابراهيمي

أصدرت البصائر الغراء لسان حال العلماء المسلمين الجزائريين عددا خاصا بمصر افتتحه الأستاذ الجليل رئيس تحريرها بهذا المقال

نسميك يا مصر بما سماك الله به في كتابه ، فكفاك فخرا أنه سماك بهذا الاسم الخالد الذي تبدلت أوضاع الكون ولم يتبدل ، وتغيرت ملامح الأرض ولم يتغير ؛ وحسبك تيها على أقطار الأرض أنه سماك ووصفها ، فقال في فلسطين : « الأرض المقدسة » و « القرى التي باركنا فيها » وقال في أرض سبأ : « بلدة طيبة » ولم يسم إلا الطور وهو جبل ، ومكة وهي مدينة ، ويثرب وهي قرية . فتيهي وافخري بهذه اللامة التي كساكها الله ، وخذي منها الفأل على أنك منه بعين عناية لا تنام ، وبذمة رعاية لا تخفر ، وبجوار أمن لا يخزى جاره . .

* * *

نأسى لك — يا مصر — أن أنزلتك الأقدار بهذه المنزلة التي جلبت لك البلاء ، وجرت عليك الشقاء ؛ وأن حبتك هذا الجمال الذي جذب إليك خطاب السوء من الأقوياء الطامعين ، والقواد الفاتحين ؛ وأن أجرى فيك هذا الوادي العذب الذي كان فتنة الخيال البشري ، فلم يقنع لمائه إلا بأن ينبطه من الجنة ، وكان وثن القدماء من ورائه فتقربوا إليه بالنذور والقرابين ؛ وكان طاغوت فرعون ذي الأوتاد ، فحرك فيه نزعة الألوهية ، فتوهم أن شاطئيه الأخضرين هما نهاية الكون ، وأنه كفاء لملك الله الطويل العريض ؛ وأن وضعك من هذا الكوكب الأرضي في موضع الواسطة من القلادة ، فتعلقت بك الأبصار حتى « كأن عليك من حدق نطاقا » ؛ وأن جعلك برزخا فاصلا بين الشرق والغرب ، فكنت — على الدهر — مجال احتراب بين الشرق والغرب . فصبرا يا مصر ، فهذا الذي تعانينه هو مغارم الجمال والشرف والساطة

* * *

سموك « عروس الشرق » فكأنما أغروا بك الخطاب ، وهجهجوا فيك لآساد الغلاب . وسموك « بمنارة الشرق » فلفتوا إليك الأعين الخزر ، ولووا نحوك الأعناق الغلاب ؛ ولو دعوك « لبؤة الشرق » لأثاروا — بهذا الاسم — في النفوس معاني رهيبة ، منها دق الأعناق وقصم الظهور وتزييل الأعضاء . وقديما سموا بغداد « دار السلام » فجنوا عليها وكأنما دلوا عليها المغيرين ؛ ولو سموها دار الحرب لأوحى الاسم وحده ما تنخلع منه قلوب الطامعين ، وتخنس له عزائمهم ، وتتكسر لتصوره الجيوش اللجبة : فغفرا — يا مصر — فما هذه الأسماء إلا من هيام الشعراء

* * *

وما زلت — منذ كنت — مهوى أفئدة الغزاة الفاتحين ، فأخذوك اقتسارا وصلحا ، وحازوك طوعا وكرها ، وما منهم إلا من مهرك المهر الغالي ، وساق إليك الثمين المدخر ، بما خلد فيك من آثاره ، وبما خلف فيك من سمات قومه ومعانيهم : حازك الاسكندر فخلد فيك الاسكندرية ، وملكك قمبيز فخلف فيك شيات من فخار فارس وخيلائها ، وحل فيك بطليموس فخلف فيك أثارة من حكمة يونان ؛ ودامبك قياصرة الرومان فخلفوا فيك أثرا من عظمة الرومان ؛ وفتحك عمرو فمهرك بيان العرب كله ، وهداية الإسلام كلها . فافخرا — يا مصر — فهذه المخايل اللائحة على صفحاتك هي بقايا مهورك الغالية . وإن أغلاها قيمة — وحقك — وأثبتها أثرا ، وأبقاها بقاء ، وأشبهها

بشمائلك – لمهر عمرو ... فما زلت منذ تفيأت ظل الإسلام الظليل ، تجدين منه فى كل ناحية مجدا ، ووراء كل ناحية فخرا . وما زلت كلما شكوت ضرا فى دينك يخف إليك من يكشفه ؛ وكلما شكوت شرا فى دنياك يخف إليك من يدفعه

خف إليك « جوهر » حين لحقتك علامة التأنث ، وتقلب على تراثك العبيد . وخف إليك « صلاح الدين » حين امتهن فيك الدين . وخف إليك « سليم » حين لعبت بك أهواء المماليك . وخف إليك « على » حين تحكم فيك الصعاليك : تأخروا بركبك عن زمانك ، فألحقك بزمنك ، وبالقوافل السائرة من بنى زمنك ، وأراد لك أن يكون محلك من الغرب أماما ، وأن تكونى من الشرق أما وأمة وإماما ، فما عابوك ، ولكنهم هابوك ، فنصبوا لك فى كل حفرة عاثورا ، ووضعوا لك فى كل فج فخا ، وأجمعوا على أن لا تكون لك جارية فى بحر ، ولا سارية فى بر ، فمن بعض ذلك كل ما تعانين

لئن كانت أزماتك فى التاريخ كثيرة ، فكلها إلى انفراج عاجل . ومن المؤلم أن تطول بك المحنة فى هذه الدورة من أدوار الفلك ، وأن تبتلى بخصم اثيم الخصومة والكيد ، يعدها زمنه بالقوة والأيد ، وأن يستحل حرماتك غاصب غريب لا تجمعك به نسبة الشرق ، ولا يلتقى منكما – إلى آدم – عرق بعرق ، فيجعل منك أداة لكيده ، وجارحة لصيده ، ومطية للصوصيته ، وطريقا لظلمه وظلامه ... فلو أن المسالك ، تشترك فى الاجرام مع السالك – لكان لك شرك فى كل ما حمل الانجليز من أوزار ، ولحملك العدل كفلا من مآثمهم فى الشرقيين ... إذ لولا قناتك ما ثبتت له على أديم الشرق قدم . فليتك تماسرت بالأمس فى حفر هذه القناة ! أو ليتك تصنعين بها اليوم ما صنع العرب بجناة ، فتوسعين هذه ردما ، كما أوسعوا تلك هدما ... حتى إذا ملكت أمرك حفرت ما يرويك ، لا ما لا يرديك . وما فضل ماء استنبطته يداك ، لينتفع به عداك ؟ وما ذاد الأباة من الحياض إلا لتكون لهم وردا

* * *

لا توحشنك غربة ... إن مئات الملايين من القلوب رفافة على جنباتك ، حائمة على مواردك ، هائمة بحبك ، تقطع الآنات فى التفكير فيك ، ولا تقطع الآنات من الامتعاض لك . وإن مئات الملايين من الألسنة رطبة بذكرك ، متحركة بحمدك ، ناطقة بفضلك ، متغنية بمحاسنك . وإن هذا لرأس مال عظيم ، لم تظفر به قبلك يدان ...

أنت اليوم مثابة العروبة ، فى تراثك حيى بيانها ، وبعثت أفنانها ؛ وفى رياضك تفتحت أزهارها ، وغردت بلابلها . ففى ذمة كل عربى حر الدم لك دين واجب الوفاء ، وهذا أجل الوفاء

وأنت اليوم قبلة المسلمين ، يولون وجوههم إليك كلما حز بهم أمر ، أو حلت بهم معضلة ، وينفرون إلى معاهدك ، يمتارون العلم منها ، وإلى كتبك يستصحبون الفكر والرأى منها ، وإلى علمائك يتلقون الفتيا الفاصلة بين الدين والدنيا منهم . فلك – بذلك – على كل مسلم حق ، وهذا أوان الحاجة إليه

وأنت اليوم مأزر الإسلام ، فكلما سيم الهوان فى قطر ، أو رماه زنديق بنقيصة ، فزع إليك واستجار بك ، يلتمس الغوث ، ويستمد الدفاع . فلك على المسلمين فى المشارق والمغارب فضل الحماية لدينهم ، وعليهم أن يطيروا خفافا وثقالا لنصرتك ، ثم لا منة لهم عليك ولا جميل

وكيف بك – مع هذا – لو كنت مظهرا للاسلام الصحيح ، ولمثله العليا فى العقائد والأعمال والأحكام ؟ – إذن لكنت قدوة فى إحياء سنته التى أماتتها البدع ، وفى إقامة أعلامه التى طمستها الجهالات ، وفى بعث آدابه التى غطت عليها سخافات الغرب ، وفى نشر هدايته التى طوتها الضلالات ؟ وإذن لحييت وأحييت . ومن الغريب أنك قادرة على تغيير ما بك من عهد الأدران ثم لم تفعلى ؛ وأنك قادرة على إعادة الإسلام إلى رسومه الأولى ثم لم تفعلى . ويمينا برة لو فعلت لما حل بك ما حل . ولو فعلت لقدت المسلمين بزمام ، ولكنت – بهم – للعالم كله إماما أى إمام

وسبحان من قسم الحظوظ بين الجماعات فأعطى كل جماعة حظا لا تعدوه ، وفرق الخصائص على البقاع فخص كل بقعة بسر لا يعدوها ، فما زلنا نستجلى من صنع الله لك وللإسلام لطيفة سماوية ، وهى أنه كلما رثت جدة الإسلام ، وخالطته المحدثات ، سطع فى أفق من آفاقه نجم يهدى السارين إلى سوائه ، وارتفع صوت بالدعوة إلى أصول هدايته ، ثم لا يلبث ذلك النجم أن

يخبو ، وذلك الصوت أن يخفت ؛ إلا نجا ـ طع فى أفقك ، وصوتا ارتفع فى أرجائك . وقد ارتفعت أصوات بالإصلاح الدينى فى أقطار الإسلام ، وفى حقب مرونة من تاريخه ، فضاعت بين ضجيج المبطلين ، وعجيج الضالين ، إلا صوت « محمد عبده » فانه اخترق الحدود وكسر السدود

عهدك التاريخ صخرة من معدن الحق ، تتكسر عليها أمواج الباطل ، فكونى أصلب مما كنت ، وأرسخ قواعد مما كنت ، تنحسر الأمواج وأنت أنت

أقدمت فصممى .. وبدأت فتممى ... وحذار من التراجع ، فان اسمه الصحيح «هزيمة» . وحذار من التردد ، فإنه سوس العزيمة

إنك فائزة هذه المرة بأقصى المطلوب ، لأنك أردت فصممت ، وانما يعين الله من مخلوقاته المصممين . وإذا كان المطلوب حقا ، وكان الطالب عدلا ، فأكبر الأعوان على نيله التصميم ، فصممى ثم صممى

إن قلبى يحدثنى حديثا كأنما استقاه من عين اليقين ؛ وهو أنك فائزة منتصرة ظافرة فى هذه المعركة ، لأنك استعملت فيها سلاحا كنت تنشدينه فلا تجدينه ، وهو الإرادة يحدوها التصميم ، يعدها الإيمان بالحق ، يربط ثلاثتهما الاجماع على الحق

إنك فائزة فى هذا اليوم بالأمنية التى عملت لها قرونا ، وإن فوزك فوز للعرب وللاسلام وللشرق . فيا ويح دعاة الوطنيات الضعيفة المحدودة ، إذا أقدم الأبطال نكصوا ، وإذا زاد الناس نقصوا . ويحهم ، إن المستعمر سارق ، وإن السارق الحاذق لا يسرق إلا فى الظلمة أو فى الغفلة ، فإذا انحسر الظلام ، أو انقشعت الغفلة ولى مدبرا بالخيبة والخسارة ، وإن مصر لفى فجر صادق ، وإنها لفى يقظة صاحية ، فأى موضع يسع السارق فيها ؟

صممى ، وأقدمى ؛ ولا تخدعنك وعد ، ولا يزعجنك وعيد ، ولا تلهينك المفاوضات والمخابرات ، فكلها تضييع للوقت ، وإطالة للذل . ولقد جربت ولدغت من جحر واحد مرارا

ان الخصوم — كما علمت — لئام ، فاقطعى عنهم الماء والطعام . وإن اللؤم والجبن توأمان منذ طبع الله الطباع ، فحركى فى وجوههم تلك القوى الكامنة فى بنيك يرتدعوا

صممى وقولى للمتعاقلين الذين يعذلونك على الإقدام : «وأشنع شىء ما تقول العواذل»

انثرى كنانتك — يا كنانة الله — فإن لم تجدى فيها سلاح الحديد والنار فلا تراعى . واحرصى على أن تجدى فيها السلاح الذى يفل الحديد وهو العزائم ، والمادة التى تطفئ النار وهى اتحاد الصفوف ، والمسن الذى يشحذ هذين وهو العفة والصبر .

فلعمرك — يا مصر — إنهم لم يقاتلوك بالحديد والنار ، إلا ساعة من نهار ؛ ولكنهم قاتلوك فى الزمن كله بالأستاذ الذى يفسد الفكر ، وبالكتاب الذى يزرع الشك ، وبالعلم الذى يمرض اليقين ، وبالصحيفة التى تنشر الرذيلة ، وبالقلم الذى يزين الفاحشة ، وبالبغى التى تخرب البيت ، وبالحشيش الذى يهدم الصحة ، وبالممثلة التى تمثل الفجور ، وبالراقصة التى تغرى بالتخنث ، وبالمهازل التى تقتل الجد والشهامة ، وبالخمر التى تذهب بالدين والبدن والعقل والمال ، وبالشهوات التى تفسد الرجولة ، وبالكماليات التى تثقل الحياة ، وبالعادات التى تناقض فطرة الله ، وبالمعانى الكافرة التى تطرد المعانى المؤمنة من القلوب . فإن شئت أن تذيبى هذه الأسلحة كلها فى أيدى أصحابها فما أمرك إلا واحدة ، وهى أن تقولى : إنى مسلمة ... ثم تصومى من هذه المطاعم الخبيثة كلها ... إن القوم تجار سوء ، فقاطعيهم تنتصرى عليهم ... وقابلى أسلحتهم كلها بسلاح واحد وهو التعفف عن هذه الأسلحة كلها ... فإذا أيقنوا أنك لا حاجة لك بهم ، أيقنوا أنهم لا حاجة لهم فيك ، وانصرفوا ... وماذا يصنع « المرابى » فى بلدة لا يجد فيها من يتعامل معه بالربا ؟

نعمة من الله عليك أن امتحنك بهذه المحنة ، وأنت فى مفترق الطرق . ولو تأخرت المحنة قليلا لخشينا أن تسلكى أضل السبل

فرصة من فرص الدهر ، هيأها لك القدر للرجوع إلى هدى محمد ، ومحامد العرب ، وروحانية الشرق . فإن انتهزتها محوت آية الغرب ، وجعلت آية الشرق مبصرة

ويا مصر ، نحن وأنت سواء فى طلب الحق ومطاردة غاصبه . ونحن وأنت مستبقون إلى غاية واحدة فى ظلام دامس ؛ ولكنك أصبحت ، فيا بشراك ، ويا بشرانا بك ، ولم نزل نحن فى قطع من الليل ، نرقب الفجر أن يتبلج نوره ، وما الفجر منا ببعيد

محمد البشير الإبراهيمى